صحيفة المرأة المسلمة

العدد : ٢١٧ الموافق في ذو القعدة ١٤٢٠ هجري ٣ / ٢٠٠٠ ميلادي

عنوان المقال : الـــديـــن والعـــــادات	بقلم : أم ياسر

جمعتني صدفة بسيدة كريمة ، بدت لي من الوهلة الأولى هادئة متزنة متدينة ، لكنها كانت تخفي في صدرها - كما بدا لي - حزناً وكآبة ارتسمت آثارهما على وجهها الجميل ، ونطقت بهما عيناها ، وتجلى ذلك في نبرات صوتها الضعيف .

جلسنا وحيدتين ، أردت أن أكسر حاجز الصمت بيننا ، فبادرتها بالسؤال عن أحوالها وصحتها .. وعرفت أنها قد أتت لزيارة أخيها من حوالي أربعة أشهر بعد أن توفي زوجها وضاقت بها الدنيا ، فأتت إلى هذه البلاد علها تجد لها متنفساً يخفف من آلامها وكربتها ..

وسألتها إن كان لها أبناء أو بنات .. فأجابتني بأنها لم ترزق بالولد لكنها ربت أيتاماً ، وزوجت بعضهم .. فشد ذلك انتباهي واهتمامي وطلبت المزيد من الشرح وكأنها كانت تنتظر مني ذلك ، فبدأت تخرج ما في جعبتها ، قصة يتعجب الإنسان من حصولها في وقتنا هذا .. لكنها تحدث وتتكرر على وجوه عدة .

قالت : تزوجت ولم أنجب .. لم أكن أنا السبب .. كنت أشعر بالحرقة على الولد واللهفة إلى حمل طفلٍ رضيع ، وضمه إلى صدري .. وكانت هذه اللهفة تزداد يوماً بعد يوم إلى أن قصدت أنا وزوجي داراً للأيتام فأخذنا منه بنتاً يتيمة الأبوين وربيناها ، بل أصبحت ابنتنا في الدوائر الرسمية ، وابنتنا التي نحبها ونعطيها الحنان والعطف والرعاية ... وبعد عشر سنوات أتيت بابنةِ أخٍ لي بعد ولادتها مباشرة وربيتها كذلك .. وأتبعتها بعد ثلاث سنوات بوليد ثالث أتيت به من دار التوليد وسُرَّتُه لم تسقط بعد .. البنت الأولى زوجتها وصارت أماً لبنت والحمد لله .. وهي لا تعلم أماً لها غيري ، وابنة أخي التي لا تناديني إلا « أمي » - وقد تركتها عند أهلها حتى عودتي إلى البلد .. ثم تنهدت بعمق ولوعة قائلة : أما ابني الثالث سعد فقد حرموني منه ، وفرقوا بيني وبينه ، ووضعوه في ملجأ الأيتام ضاربين بتوسلي لهم وحرقتي على ولدي عرض الحائط . لم أفهم قصدها فبادرتها : من ؟ هل الحكومة أم أصحاب ملجأ الأيتام .. ؟! قالت بسخرية الملتاع - وعيناها تدور في جنبات الغرفة ثم تضرع إلى طالبة الفرج من رب السماء - : لا بل إخوتي .. إخوتي الذين عُرفوا بالصلاح والتقوى والعكوف على التكايا والزوايا وحضور حلقات الذكر .. إخوتي الذين أحبوا ذلك الطفل في حياة أبيه ، عندما كنا تقوم بزيارتهم أنا وزوجي والطفل معنا كانوا يستقبلوننا بالترحيب وبكلمات ما شاء الله .. تبارك الله ، ما أجمل هذا الطفل

وما أروعه ، كان يتنقل بين الأيدي تدليلاً ومداعبة وتقبيلاً ، كم كنت أشعر بالفرح ، وكم كان يبتهج زوجي لذلك .. زوجي الحبيب الذي احتوى هذين اليتيمين وابنة أخي ، كان يرى فيهم الولد ، ويعرف مدى الأجر العظيم الذي يكتبه الله عزَّ وجلَّ لكافل اليتيم .. كان يسخو عليهم بعطفه وحنانه ورعايته كما كان يسخو عليهم بماله .. ولما ضاقت به الحال كاد يقطع من لحمه ليطعمهم ، ومن جلده ليكسوهم .. ثم ذهب خارج البلاد ساعياً وراء الرزق .. غاب ثلاث سنوات حتى استقر به الأمر وبدأ بالعمل وبكسب الرزق .. فبادر بتقديم الأوراق اللازمة لإحضارنا - أنا وأولادنا الثلاث - ولما تم له ذلك استعد للمجيء وأخبرني بوقت وصوله .. عمت الأفراح بيتنا ، وأخذت أستعد أنا والأولاد لاستقبال ذلك الحبيب الذي غاب عنا طويلاً . ويوم وصوله صنعت ما كان يشتهي من طعام وشراب وحلوى ، وجهزت بيتي وأطفالي استعداداً لاستقباله .. رن جرس الهاتف ، وبادرني شخص بقوله : هل هنا منزل فلان ؟ .. شعرت في تلك اللحظة وكأن قلبي قد انخلع من مكانه ، أجبته ما الأمر بحق الله عليك ؟! قال : لا .. لا شيء .. أريد أن أتحدث مع أحد إخوته أو أقربائه من الرجال .. ولما لم يكن منهم أحد عندي .. أخبرني بالخبر الأليم .. زوجك مات ليلة أمس .. كان يستعد للسفر في الصباح ، لكنه أصيب بسكتة قلبية ومات أثناء نقله إلى المستشفى رحمه الله .. أريد أن أتحدث مع إخوته لإعادة جثته إلى البلد و ... وكانت تغيب عباراته عن سمعي شيئاً فشيئاً وسقطت مغشياً عليَّ .. صحوت من غشيتي ، وكانت النساء من حولي تمسح وجهي ويدي ورأسي بالماء البارد .. صحوت لأجابهها حقيقة مرة كالعلقم .. أين أنت أيها الحبيب ؟! كيف تتركنا ونحن في غمرة الفرحة للقياك ؟! ولكنها مشيئة العلي القدير .. حسبي الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .. وتلفتُّ حولي أبحث عن أولادي .. عن أيتامي الذين غدوا أيتاماً من جديد .. ماذا أفعل .. من يعيلنا من بعده ؟ إنه الله .. ونعم بالله . جفت الدموع في عيني ، واحتبست الكلمات في حنجرتي فما كان مني إلا الصمت والأنين ..

أحضر زوجي بنعشه عائداً إلى البلد .. وقف ابني سعد ينظر إلى أبيه الذي ما عرف له أباً غيره قط ، أخذ يرتعش وكأنه حمامة فتية أوشكت تتعلم الطيران ، لكن جناحيها تكسرا قبل النمو فوقفت لا تبارح مكانها قرب شجرة تنتظر المجهول .. انكب على أبيه يبكي ملتاعاً ، كان يتساءل قبل أيام ، ترى ماذا سيحضر لي أبي ، وهل سيجلب معه ما طلبته .. ؟ كان ينظر كل يوم إلى التقويم الشهري ويشطب على تاريخ اليوم الذي نصحو فيه فرحاً بأن يوماً قد مضى ليقربنا من يوم اللقاء ..

لقد زاد بكاؤه في حرقتي ولوعتي ، ضممته إلى صدري لأخفف عنه بينما بللت دموعي رأسه

وثيابه ، وكانت ساعة يعجز اللسان عن وصفها لهولها وقسوتها .. لكنها مضت وانتهت .. ومضت بعدها أيام .

جمعت حوائجي ، وأخذت أوزع أثاث بيتي ، فقد كان لا بد لي من ترك هذا البيت الذي أعجز عن دفع أجرته ، فقد تركنا زوجي لكنه لم يترك لنا شيئاً أبداً ، وأصر إخوتي على اصطحابي معهم .. كل إلى منزله ، وكان هذا لا بد منه ، فليس لي من أشعر بالدفء تحت جناحيه غيرهم .. استقبلوني باللطف والترحيب ، وهذا ما اعتدته منهم طول حياتي يشهد الله ، فقد كنت أختهم الوحيدة ، وكانوا لا ينفكون عن تدليلي وإكرامي والتحبب إليَّ أيام عزوبتي وزواجي .. لكنهم كانوا ينظرون لابني سعد نظرات تخفي وراءها أشياء ظهرت بعد أيام ، حيث صارحوني بما في أنفسهم قائلين : أنتِ يا أختنا ستكونين بيننا في القلب والعين ، أما هذا الولد فلا يمكن أن نقبله بيننا أبداً ، أخته نقبلها أن تكون منا وقد تزوجت ، وتدخل بيوتنا وتخرج كما تشاء فهي على الرأس والعين لأننا نعرف أنها تربت يتيمة ، أما ذلك الولد فلا يمكن أن نقبله بيننا أبداً ، وهو ليس منا ولسنا منه ، صحيح أنك أخذتيه وليداً وربيتيه ، لكنه لقيط ، مجهول الأبوين ، بل يمكن أن نقول إنه ابن حرام ، ونحن لا نقبل بيننا ابن حرام .

شعرت في تلك اللحظة أن مأساتي الحقيقية قد بدأت الآن ، وما كانت وفاة زوجي إلا بداية لهذه المأساة .. كيف تحكمون علي بهذا الحكم الجائر ، ألا ترحمون ترملي وحزني على زوجي لتزيدوا علي بحرمان ولدي .. أرجوكم أتوسل إليكم ، إنه النور الذي أنظر إلى الدنيا من خلاله .. إنه الهواء الذي ينعش رئتي .. بل إنه الغذاء الذي يسري في عروقي .. ما ذنب هذا الطفل ، إنه يتيم يوم حكم عليه أن يرى وقد تخلى عنه أبواه .. هل نعاقب بريئاً على جريمةٍ ارتكبها أهله ..

لم تشفع توسلاتي عندهم وبكائي ورجائي بأن يتركوا لي ولدي .. إنه ولدي الذي لم أنجبه من بطني ولكنه شطر من روحي وسعادتي وهنائي ، أقسم بالله العظيم لو طلبوا مني أن أعطيه عيني لأعطيته واحدة وتركت الأخرى لأراه بها .. ربما لو كنت أمه الحقيقية لما أحببته هذا الحب .. بل ربما لو كنت كذلك لما وجدت فيه وبأختيه الخير الذي أجده الآن ...

هذه قصتي يا أختي .. أرجوك .. أتوسل إليك هل من مخرج من هذه الأزمة ؟ لو كنت أملك مالاً لما لجأت لأحد ، ولسكنت مع ابني في عشٍ صغير يجوع معي إذا جعت ويشبع إذا شبعت .. كانت تغمض عينيها تارة بحسرة وألم ، وتفتحهما تارة متضرعة إلى الرب العلي الكبير بالفرج القريب .